تصوير الحياة الاجتماعية للغربيين في الرواية العربية

" دراسة تحليلية "

إعداد

أبو الوفاء يحيى علي حفني الشرقاوي

المقدمة

من أبرز المحاور التي تعرضت لها الروايات العربية عند نظرتها للغرب هو تصوير الحياة الاجتماعية عندهم ، وكثير من النقاد يؤكدون " أن الروائي خاصة يتحمل مسئولية كبيرة في التوسط بين الإنسان والحياة " [١] ، والحياة الاجتماعية هنا هي كل مناحي الحياة لشعب ما ، فيعرض الكاتب في ثنايا رواياته للمأكل والمشرب والملبس ، وكيفية تعبير الشعب عن أفراحه وأتراحه ، فضلا عن تصوير الصفات التي يتصف بها أبناء الشعب وعلاقاتهم ببعضهم البعض ، وتأثير الدين في حياتهم ، مع وصف المظاهر الطبيعية للحياة وصولا إلى الحديث عن أوطانهم وانتمائهم لها .

وتأتي أهمية هذا البحث في أنه يقوم بعرض الصورة التي بناها الروائيون العرب للحياة الاجتماعية للغربيين ، حيث أن هذه الحياة قد أخذت في العقل الشرقي صورة نمطية سلبية ، فالصورة المختزنة عنهم " صفات لا تتغير تقريبا ، مثل : الكفر ، والانحلال الأخلاقي ، والتفكك العائلي ، وشرب الكحول .. إلخ " [٢] . فلا تتعدى الصورة النمطية للغرب عند العرب في حياتهم الاجتماعية عن كونه " مستودعا للمعرفة عنوانه الجامعة ، ومكانا للإشباع الجنسي ، وأدواته المرأة الشقراء ، وفضاء ذميم يعبث بالإيمان " [٣] .

وقد لخص يحيى حقي هذه الصورة النمطية السلبية للغرب في عيون العرب في روايته بقوله " **أما الأم .. تتصور بلاد برة في نهاية سلم عال ينتهي**

---

(١) عيسى قويدر العبادي ، المشعوف في الرواية الأردنية المعاصرة ، ص ١٣٠ .

(٢) غسان السيد ، صورة الغرب في الأدب العربي – رواية (فياض) لخيري الذهبي نموذجا – ، مجلة جامعة دمشق ، المجلد ٢٤ ، عدد ٤٠٣ ، ٢٠٠٨م ، ص ٩٠ .

(٣) فيصل دراج ، الرواية وتأويل التاريخ ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط١ ، ٢٠٠٤م ، ص ٦٩ .

إلى أرض تغطيها الثلوج ، ويسكنها أقوام لهم حيل الجن وألاعيبهم . أما فاطمة النبوية فقلبها واجف تسمع أن نساء أوروبا يسرن شبه عاريات وكلهن بارعات في الفتنة والإغراء " [١] .

وقد وقع الاختيار على مجموعة من الروايات العربية هي :

١- (أديب) لطه حسين .
٢- (عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم .
٣- (قنديل أم هاشم) ليحيي حقي .
٤- (موسم الهجرة إلي الشمال) للطيب صالح .
٥- (نيويورك٨٠) ليوسف إدريس .
٦- (فيينا ٦٠) ليوسف إدريس .

ووقع الاختيار على هذه الروايات للأسباب التالية :

١- أنها من أوائل الروايات التي تحدثت عن فكرة صورة الغرب لدى المجتمع الشرقي ، ويتمثل هذا في أبطال رواياتهم .
٢- كتاب هذه الروايات قامة كبيرة في الحقل الروائي فهم يحلقون بعيدا في سماء الرواية العربية .
٣- كتاب هذه الروايات من الأدباء الذين عاشوا ردحا من الزمن في البلاد الغربية ، فرأوا جمالها وعاينوا مثالبها عن قرب ، وسفرياتهم الخاصة إلى الغرب جعلتهم يكونون صورة واقعية محسوسة عن الغرب والغربيين
٤- اشتركت هذه الروايات في أن أبطالها أشخاص ذهبوا إلى الحواضر الغربية طلبا للعلم أو الأدب أو الفن أو المرأة .
٥- احتوت هذه الروايات على عدد كثير من النصوص التى تحلل وجهة نظر الكتاب في الغرب والغربيين .

---

(١) يحيي حقي ، قنديل أم هاشم ، ص ٧٧ .

٦- اهتمام النقاد العرب بهذه الروايات أعطاها بعدا فنيا كبيرا .

ولما كانت الصورة النمطية تلصق بالمجتمع الغربي كل أنواع الفحش والسوء والانحراف الأخلاقي ، فجاءت الروايات – محل الدراسة – لتعرض بين ثناياها هذا الموضوع ، تركيزا على تصحيح المفاهيم المغلوطة عن الأسرة والمجتمع الغربي ، مع التأكيد على بعض الأمور السلبية للمجتمعات الغربية .

حيث قام الروائيين بتصوير العادات والتقاليد الاجتماعية للشعوب الغربية مع وصف مجموعة من القيم والمعايير الرائجة هناك ، كما رصدت الرواية العربية الوجه الاجتماعي القبيح للغرب خاصة ما يتصل بأمورهم الدينية .

وقد أسلمني ما سبق أن أجعل البحث في مطلبين :

الأول : صورة حياتهم اليومية .
الثاني : الحياة الأسرية في المجتمع الغربي .

أولا : صورة الحياة اليومية للغربيين :

١- حياتهم هادئة ومستقرة :

كانت أكثر الروايات – محل الدراسة – تصويرا للحياة الاجتماعية عند الغربيين هي رواية (أديب) ويرجع ذلك إلى حب طه حسين وولعه بأوروبا عامة وفرنسا خاصة ، فقد وطأ طه حسين " الأراضي الفرنسية يغزوه شعور جارف بكونه من بين أكثر الناس سعادة وحظا في العالم ، شاب مصري ضرير وفقير ، يحلم بالذهاب إلى فرنسا ، ويكتشف أن حلمه تحقق جديا .. لقد مارست أوروبا عملية إغراء هائل على جل المثقفين الذين سبقوه غير أنهم بقوا عموما سجناء حالة عميقة من التباين والانشطار ، أو انخرطوا في توفيقية تبريرية لا

يستطيعون اخفائها ، في حين أن طه حسين قد أسس منذ البداية نظرة واضحة منسجمة للغرب ، أن الحضارة الأوروبية وثقافتها وتقدمها نموذجا يحتذى " [١] .

وصف طه حسين كل شيء يتعلق بالحياة هناك ، فوصف حياتهم بالهدوء والسكينة والطمأنينة فيقول على لسان صديق الراوي الذي كان في باريس وقت العدوان عليها في الحرب العالمية الثانية :

" **فلئن نجت باريس من هذا الشر المحدق لأعودن إلى ما أنا فيه من حياة هادئة وادعة** " [٢] .

فإذا نجت باريس من العدوان عليها سيعود بطل القصة إلى الحياة الطبيعية في باريس ، إنها حياة الهدوء والراحة ، وفي استخدامه لفظ (وادعة) دلالة على الدعة في العيش التي يعيشها أبناء باريس وهي صفة حياتهم هناك .

ويقول عن مدينة (مونبليه) :

" **وانعم بالوصول إلى فرنسا والاستقرار فيها والاختلاف إلى جامعة مونبليه وانعم بما قدر لك من أمن وهدوء** " [٣] .

فقد كرر الراوي الفعل (انعم) مرتين ليدل على أن النعمة كلها هناك ، النعمة في الوصول إلى فرنسا والاستقرار والعيش الهنيء فيها ، النعمة كذلك في الاختلاف إلى جامعة (مونبليه) لينهل فيها العلوم والمعارف والآداب ، والنعمة أيضا في العيشة الآمنة الهادئة في تلك المدينة .

---

(١) محمد نور الدين أفاية ، الغرب في المتخيل العربي ، ص ٣٧ و٣٨ .

(٢) طه حسين ، أديب ، ص ١٥٠ .

(٣) السابق ، ص ١٥٦.

٢- حياتهم الثقافية :

ولم تكتف الرواية بوصف الحياة في فرنسا بالهدوء والاستقرار والأمان ، لقد تعدت الرواية ذلك لتصف الحياة الثقافية هناك ، إن أهم ما يميز الغرب هو اهتمامهم بالعلوم والثقافة والآداب " فالغرب يختص بالتقدم الميكانيكي والحركات الصناعية والديموقراطية وتلوين أدبه وفنه بلون خاص – لون عملي أكثر منه نظريا – " (١) .

فالغربيون يتجمعون فرادى وجماعات في المعاهد والملاهي والمقاهي لطلب العلم ومدارسته " **فأنا لا أخلو إلى نفسي هذه الخلوة في بيتي وإنما أخلو إلى نفسي في الحدائق والمتاحف والقهوات حيث يجتمع الناس من هذه العمارات أو معهد من هذه المعاهد التي يستقر فيها الجد خصبا حافلا بالنفع والأمل لا لأهل باريس ولا لأهل فرنسا بل للناس جميعا .. وأخلو إلى نفسي أمام معهد من معاهد اللهو هذه التي تستقر فيها الدعابة فتبعث الفرح في القلوب جميعا وتبعث الابتسام على الثغور جميعا وتجدد النشاط للعمل وتحبب الحياة إلى الذين زهدوا في الحياة أخلو إلى نفسي أمام هذه الأشياء التي أراها كنوزا للإنسانية قد حوت خير ما عند الإنسانية من فن وأدب ومن فلسفة وعلم ومن عمل وأمل ومن تفكير وتدبر وروية ونشاط** " (٢) .

فالباريسيون يتجمعون في الحدائق والمقاهي ومعاهد العلم ومعاهد اللهو للاستفادة بالعلم النافع الموجود هناك ، فقد تحولت لديهم أماكن الترفيه من حدائق ومقاهي وأماكن للهو إلى مراتع لدراسة الآداب ومدارسة الفلسفة وتلقي العلوم ، والعلم المعروض فيها ليس حكرا على أبناء البلد بل يستفيد منه كل الزائرين ،

---

(١) أحمد أمين ، الشرق والغرب ، ص ٨ .

(٢) السابق ، ص ١٤٧.

حتى العدو الذي يمكر بهم له منه نصيب ، ثم هو يبالغ في وصف هذه الأماكن وهذه العلوم بأنها (كنوزا للإنسانية قد حوت خير ما عند الإنسانية ..) .

لم تكن المقاهي هناك مرتعا لمجالسة الأصدقاء وقضاء وقت الفراغ والتلهي عن الأمور الهامة ، بل كانت أماكن لمدارسة العلم ومناشدة الشعر ، كانت المقاهي – أو قل بعضها – للأدباء والعلماء يختلفون إليها حينا بعد حين للتعلم يقول على لسان صديق الراوي :

" **وها أنذا ألتفت عن يمين وشمال فأعرف المكان الذي أنا فيه والذي أكتب منه إنها هذه القهوة التي يألفها الأدباء في حي مونبرناس والتي تعودت أن أختلف إليها وأجلس غير بعيد من أنديتهم ومجالسهم حين يديرون بينهم الدعابة وهذه الفكاهة ذات الأجنحة وحين ينشدون الشعر ويتبادلون الرأي فيه .. إني لأعرف نفسي في هذه القهوة التي كانت وقفا أو كالوقف على أدباء الحي اللاتيني** " [١]

وفي استخدامه لفظ (وقفا) التي تدل على الحصر دلالة على أنها مقصورة ومخصصة للأدباء لا يدخلها سواهم .

والملاحظ أن الوحيد الذي تحدث عن الحياة الثقافية والعلمية للغربيين في روايته بهذه الصورة من الإيجابية هو طه حسين ، فقد " استفاد طه حسين من الغرب فائدة لا يتطرق إليها شك ، وهذه الفائدة لا تتضح في أسلوبه فحسب وإنما هي شائعة في فكره وأدبه ونقده " [٢] .

٣- انتشار الخلاعة والمجون :

ومن التصوير الفني للحياة الاجتماعية عند الغرب حديث رواية (أديب) عن الفتنة المجانية والمتاحة للجميع هناك :

---

(١) السابق ، ص ١٥٢ .

(٢) محمد محمدي ، حضور الآخر في كتابات طه حسين ، ص٢٣٦ .

" أكنت ملحا في طلب البعثة رغبة في العلم الذي كنت أزينه لنفسي أم رغبة في هذه الأبواب من الفتنة التي لم أكن أستطيع أن استفتحها في مصر والتي لا أحتاج أن استفتحها في فرنسا لأنها تفتح لي وحدها " [١] .

والنص ينبئ عن الفكرة التي أراد الراوي أن يوصلها إلى المتلقي ، إنها فكرة التحرر الذميم للمرأة الغربية بجانب ما يتاح للشخص من حرية في شرب الخمور بأنواعها ، وفي النص دلالة واضحة على سهولة فعل هذه الأشياء دون قيد أو شرط أو حتى طلب . والصورة النمطية في النص عن التحرر الذميم للمرأة الغربية هي صورة مختزنة ليس في عقول الأدباء والمفكرين فقط ، بل وفي أذهان " الذاكرة الشعبية للعرب عن الغرب ، حيث نجد صفات لا تتغير تقريبا ، مثل : الكفر ، والانحلال الأخلاقي ، والتفكك العائلي ، وشرب الكحول " [٢] .

وقد تكونت هذه الصورة النمطية عن المرأة الغربية في الذاكرة الشعبية المصرية إبان الحملة الفرنسية على مصر ؛ فقد تنبه المصريون إلى " أشكال حضارة غربية غريبة عليهم ، رأوها أثناء إقامة رجال الحملة الفرنسوية بالقاهرة ؛ فلسنا بحاجة إلى تصور سلوك الجنود الفرنسيين وضباطهم في شوارع العاصمة فهم لم يراعوا حرمة البلد المغلوب ولا احترموا تقاليده . وربما كانت معاقرة الخمر علنا ، ومعاشرة النسوة الخليعة والسير بهن في الطرقات والجلوس معهن

---

(١) طه حسين ، أديب ، ص ١٣٤ و ١٣٥ .

(٢) غسان السيد ، صورة الغرب في الأدب العربي – رواية فياض لخيري الذهبي نموذجا – ، ص ٩٠ .

في الحانات ، أول ما ظهر لأهل القاهرة من سلوك حملة لواء الحضارة الأوربية " [١] .

٤- برودة الجو :

على الرغم من انتشار صورة الثلوج والبرودة بالبلاد الغربية ، إلا أنه هذه الصورة لم ترد إلا مرة واحدة فقط في رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) فقد صورت الواقع المناخي هناك ، فوصف الصقيع والثلوج التي تحيط بكل مكان :

" **ولم يمض وقت طويل حتى أحسست كأن ثلجا يذوب في دخيلتي ، فكأنني مقرور طلعت عليه الشمس .ذاك دفء الحياة في العشيرة ، فقدته زمانا في بلاد (تموت من البرد حيتانها)** " [٢] .

لقد قارن الكاتب هنا بين دفء الجنوب وبرد الشمال ، دفء الجنوب المنبعث من الدفء الحقيقي بالوجود بجوار العشيرة ، بجوار الأهل والأقارب والخلان أبناء الجلدة الواحدة ، وبرد الشمال القارص الذي يؤدي إلى موت الحيتان والأسماك من شدته وقوته وعنفه ، وفي قوله (تموت من البرد حيتانها) كناية عن شدة البرد وقسوته .

٥- حياتهم الدينية :

أما عن صلتهم الروحية والدينية ، فقد تعرض الغربيون على اختلافهم لهجمة إلحادية معادية للدين منذ القرن السادس عشر الميلادي ، هذه الهجمات قادها كبار المفكرين والفلاسفة والأدباء والكتاب أمثال : (توماس بين) في كتابه

---

(١) حسين فوزي ، سندباد مصري جولات في رحاب التاريخ ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ ، ص ٩٩ .

(٢) الطيب صالح ، الأعمال الكاملة ، ص ١١ .

(عصر العقل) وفيه أظهر (توماس بين) " عداؤه للمسيحية شديد الوضوح والضراوة معا على عكس كثير من التأليهيين الإنجليز " [١] .

و(جان جاك روسو) في كتابه (إميل) ، هذا الكتاب الذي يبحث في التربية ويدافع عن مبادئ الطبيعة وسلامة الفطرة ، وقد احتوى على " فصل يدافع عن مبادئ الدين الطبيعي تحت عنوان (اعترافات قسيس سافويارد الألمانية) كان سببا في إغضاب الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء " [٢] .

و(فولتير) الذي أصدر مبحثا بعنوان (ملاحظات حول باسكال) شن فيه هجوما شنيعا على الدين ، وكثير غيرهم من كبار المفكرين الغربيين .

فلما رأت الشعوب الغربية قادتها ومفكريها وأصحاب العقول فيها على تضاد وتحارب مع الكنيسة تسرب لهم هذا الفكر ، فاختاروا الابتعاد عن الدين ، فالغربي " منتشي بحرية أفراده وتحرره من دياناته .. وفي ذلك تأكيد على أن الآخر الغربي قد أسس مجتمعاته الحاضرة بناء على فصل الدين عن الدولة" [٣].

لقد أصبح العلم لا الدين أساس الحياة في الغرب ، وأصبح " العلماء اليوم هم الذين يرسمون الخطط ويدعون إلى الإصلاح بدلا من رجال الدين والأولياء ، ومن الغريب أنهم مع إيمانهم بالعلم في حياتهم يستندون إلى الدين إن احتاجوا إليه كما في التعصب ضد المسلمين والتبشير ضد الوثنيين ، وفي تلك الحالات يتجلى فقط إيمانهم بالدين أما فيما عدا ذلك فلا دين " [٤] .

---

(١) رمسيس عوض ، الإلحاد في الغرب ، سينا للنشر ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٧م ، ص ١٥٩ .

(٢) السابق ، ص ١٨٢ .

(٣) عبدالله أوغرب ، الذات والآخر في روايتي (الغربة والقيم) لعبدالله العروي ، ص ١٨٥ .

(٤) أحمد أمين ، الشرق والغرب ، ص ١٣١ .

قد أشار توفيق الحكيم إلى هذا الملمح ، فتعرض للحديث عن صلتهم بدور العبادة وبين النظرة المستهترة منهم لدور عبادتهم ، فلا وزن لها عندهم فهي كالمقاهي أماكن للترفيه والترويح عن النفس ، فكتب على لسان (أندريه) :

" – **أيها العصفور الشرقي ، تعد نفسك لدخول الكنيسة ؟ ما معنى هذا ؟ إنا ندخلها كما ندخل المقهى ، أي فرق ؟ هناك محل عام وهنا محل عام ، هناك الأرغن وهنا الأوركسترا .**

فلم يلتفت إليه محسن وهمس كالمخاطب لنفسه :

–بل هناك السماء وليس من السهل على النفس الصعود في كل لحظة ، إنه لمجهود " [١] .

فأنت ترى نظرة الاستهتار وعدم العناية بدار عبادتهم ، فهي كما قال (أندريه) مكان عام يجتمع فيه الناس مثل المقاهي ، ففيهما أحاديث اجتماعية تدار بلا فائدة روحية ، حتى أن الموسيقى في الكنيسة مثل الموسيقى التي تسمع في المقاهي " ورغم أن الكنيسة موجودة في الشرق ولكنه أبى إلا أن يزورها في الغرب منقادا بإعجابه بالغرب الحضاري ، فأراد أن يتسرب إلى مساربه الروحية ، غير أن صديقه (أندريه) يقابله مبتسما ليبين له أن الغربيين لا ينظرون إلى الكنيسة بإجلال وتقديس فهي في نظرهم مكان عام مثل المقهى تماما " [٢] .

أما كلام (محسن) الذي قاله في نفسه دون أن يسمعه (لأندريه) يدل على عدم اهتمام (محسن) بمناقشة (أندريه) في فكره عن الكنيسة لعلمه

---

(١) توفيق الحكيم ، عصفور من الشرق ، ص ١٥ .

(٢) جمال مباركي ، الغرب في الرواية العربية ، بحث دكتوراة ، الجزائر ، جامعة العقيد الحاج لخضر باتنة ، كلية اللغة العربية ، ص ٢٠٥ .

المسبق أن هذا أصبح حقيقة لا مراء فيها ومن المستحيل تغيير رأيه ، لذا قال تعليقه على كلام (أندريه) هامسا دون أن يسمعه .

وفي موضع آخر يشير الكاتب في روايته إلى عدم تضحية الغربيين اليوم دفاعا عن دينهم :

" – .. **أمن الممكن لمثلي الآن أن يؤمن بالجنة والنار ، كما كان يؤمن بها المسيحيون في عصر الشهداء ؟! إنهم كانوا يقدمون للذبح ، ويلقى بهم إلى أنياب السبع وهم يبسمون .. .**

–نعم يخيل إلى أن مثل هذا الإيمان لا يمكنه أن يعرفه الغرب اليوم ! " [١] .

يستحيل اليوم أن تجد منهم من يدافع عن دينه ويضحي من أجله كما كان يفعل مسيحيو عصر الشهداء ، كانوا مثالا رائعا للتضحية ، ونبراسا واضحا للمؤمنين حقا ، لكن أين تجد مؤمنين حقا اليوم في عصر مادي بحت ، لا يعترف بروحانيات ولا دين .

ويطنب في إظهار الوجه المادي لرؤية الغربيين لرجال الكنيسة :

" **إن الشرق يوم أعطى الغرب هذه الأديان ، إنما أعطاها على النحو الذي ذكرنا ، فتسلمها الغرب وألبسها أردية موشاة بالذهب ، ووضع على رءوسها التيجان المرصعة بالماس ، وأقبضها صولجانات الجاه والسلطان والجبروت الأرضي ! إن الكنيسة في أوروبا كانت – في يوم ما – أعظم مؤسسة مالية ، وإن نظامها الرأسمالي لأدق نظام ، وإن ثروتها الطائلة لتسند ظهر أقوى البيوت المالية ، وتقوضها إذا شاءت في طرفة عين ، فأين ذهبت كلمة المسيح ؟! (ما أعسر**

---

(١) توفيق الحكيم ، عصفور من الشرق ، ص ١٢٨ و١٢٩ .

دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله ، لأن دخول جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله !!) " [١] .

يبين الكاتب هنا على لسان (إيفانوفتش) هذا العجوز الغربي أحد أهم أسباب تنحي الدين في المجتمع الغربي ، إنهم رجال الكنيسة أنفسهم عندما تحولوا من رجال وعظ وإرشاد إلى جامعي مال وجاه ، وتحول الكنيسة على أيديهم إلى لاعب رئيس في مجال المال الرأسمالي العالمي .

وهو في سبيل إيصال هذه الفكرة استخدم مجموعة من الجمل والكلمات الموحية بالبزخ والترف تتنافي مع حقيقة الدين ، فنجد كلمات مثل (ألبسها أردية موشاة بالذهب – التيجان المرصعة بالماس – صولجانات الجاه والسلطان والجبروت – أعظم مؤسسة مالية – نظامها الرأسمالي أدق نظام–ثروتها الطائلة) كما انه استشهد بقول من أقوال المسيح عليه السلام تؤيد ما ذهب إليه ، وفي الاستدلال من الإنجيل دلالة موحية على اطلاعه ومعرفته الجيدة بالأديان مما يعطيه مصداقية في عرضه .

كما أنه لم ينس الشرق وشرف الشرق الذي هو عصفوره ، حيث أبان في أول النص إلى أن هذه الأديان – يقصد الأديان السماوية – منبعها الشرق ، وهي حقيقة فالأديان السماوية الثلاث نزلت في الشرق ، وفي قوله (إن الشرق يوم أعطى الغرب هذه الأديان) دلالة على فضل الشرق على الغرب ، وأن الشرق هو الذي تفضل على الغرب بإعطائه هذه الأديان الروحية دون طلب من الغرب فهو لم يقل (إن الغرب يوم أخذ هذه الأديان من الشرق) .

([١]) السابق ، ص ١٢٩ .

ثانيا : الحياة الأسرية في المجتمع الغربي :

تأثرت الحياة الاجتماعية في الغرب بالحضارة المادية التي نشأت هناك ، وكان أول المتأثرين بتلك الحضارة هي الأسرة ، فلم تعد الأسرة " نواة المجتمع ، وأولى مؤسساته التي يتم داخلها تنشئة الفرد اجتماعيا ، حيث يكتسب فيها الكثير من معارفه ومهاراته وميوله وعواطفه واتجاهاته في الحياة ، ويجد فيها أمنه وسكنه " (١) .

أخذت الأسرة في التفكك فلم تعد هي الأب والأم والأولاد والأحفاد ، فأصبح كل واحد منهم مستقل بنفسه يعمل لراحتها ، حتى أن الابن له الحق في ترك ذويه عند بلوغ الثامنة عشر " وعندها يستقل الابن بنفسه ماديا وسكنيا وحياتيا واجتماعيا ولا تصبح له علاقة بوالديه " (٢) ، وهذا التفرق أدى إلى ضعف العلائق بين أفرادها وافتقاد الاحترام المطلوب بينهم .

تحولت الأسرة في الغرب من " كيان اجتماعي قوامه التداخل الروحي والمادي بين رجل وامرأة يجمع بينهما عقد شرعي بحضور رجل دين أو كنيسة ، إلى مؤسسة تجارية أو شراكة قوامها المنفعة والقيم المادية دون غيرها " (٣) .

ولقد تشكلت الصورة النمطية عن الأسرة الغربية في الوعي الجمعي العربي في مصر إبان الحملة الفرنسية تحديدا المرأة ، لقد اختلط المصريون بالفرنسيات خاصة في أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار المصرية القديمة وشاهدوا

---

(١) ندى بنت عطية بن راشد الزهراني ، مفهوم تحرير المرأة في الفكر الغربي – دراسة نقدية – بحث ماجستير ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٣٤/١٤٣٥هـ ، ص ٥٧ .

(٢) يحيى أبو زكريا ، الإسلام والغرب ، مؤسسة يحيى أبو زكريا للدراسات الإستراتيجية والاستشرافية ، ٢٠٠٤م ، ص ٩٢ .

(٣) السابق ، ص ٩٢ .

منهم التسلط على الرجال ، والسفور والتحرر غير المبرر أمام الغرباء " وبخاصة في قضية العفة والسفور والتسلط على الرجال والحرية التي اكتسبتها عبر الزمن " [١] .

ثم اهتمت الطبقة العليا من المفكرين المشارقة الذين كان لهم قصب السبق في الابتعاث إلى الغرب لاستجلاء مظاهر الحضارة هناك ، بتسجيل ملاحظاتهم حول الغرب ومجتمعه ، فهذا رفاعة الطهطاوي يلحظ أن " الفرنسيين شعب به شغف بالحرية ، ويحب التغيير والجد والكسب والمعرفة ، يبحثون عن أصول الأشياء ، لا يقلدون ، جميعهم متعلمون يحبون جمع المال والاقتصاد ، لا يسرفون ، مجتمعهم دنيوي لا يتبعون دينهم " [٢] ، فأول ما يلحظه الطهطاوي هو بعدهم عن الدين وعدم تمسكهم به .

وبالتالي فلا عجب أن الصورة النمطية عن زواج الغربيين لدينا – نحن العرب – لا تخرج عن كونهم أشخاص لا يتزوجون ولا يهتمون بتربية الأولاد ، وكل فرد في الأسرة له حياته الخاصة بعيدا عن أفرادها ، نعرف أن حياتهم الأسرية مفككة لا رابط لها .

وقد جاءت الروايات لتحاول التخفيف من وطأة هذه الصورة النمطية المنبثقة عن حقيقة هذه المجتمعات ، فالطيب صالح في روايته (موسم الهجرة إلى الشمال) عرض صورة الغربيين عند أهل بلدته ثم قام بتفنيدها ، فبعد وصول الراوي إلى بلدته بعد سفرة طويلة إلى بلاد أوروبا يقول :

" **كل أحد سألني وسألته سألوني عن أوروبا . هل الناس مثلنا أم يختلفون عنا ؟ هل المعيشة غالية أم رخيصة ؟ ماذا يفعل الناس في الشتاء ؟ يقولون أن النساء سافرات يرقصن علانية مع الرجال . وسألني ود الريس : هل صحيح أنهم لا**

---

(١) سالم المعوش ، صورة الغرب في الرواية العربية ، ص ١٨٤ .

(٢) السابق ، ص ١٨٧ .

يتزوجون ولكن الرجل منهم يعيش مع المرأة بالحرام ؟ أسئلة كثيرة رددت عليها حسب علمي . دهشوا حين قلت لهم إن الأوروبيين ، إذا استثنينا فوارق ضئيلة مثلنا تماما ، يتزوجون ويربون أولادهم حسب التقاليد والأصول ، ولهم أخلاق حسنة ، وهم عموما قوم طيبون " [١] .

قدم الراوي بين يدي رأيه فكرة العرب عن الغربيين في هذه الأسئلة من أبناء جلدته عن الغربيين ، ثم نسف هذه الأفكار الخاطئة بإجاباته تلك ، فالغربيون يتزوجون ويهتمون بتربية أولادهم بحسب العادات والتقاليد المتحكمة فيهم ، ولم يشر الراوي إلى أن التقاليد والأصول لديهم مختلفة عن أصولنا وتربيتنا ، ثم هو يشير إلى اهتمامهم بالأخلاق والصفات التي يجب أن يتحلى بها الفرد فيربون أبناءهم عليها .

ويزيد الراوي الأمر بيانا :

" **نعم بينهم مزارعون وبينهم كل شيء . منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم ، مثلنا تماما . وآثرت ألا أقول بقية ما خطر على بالي : مثلنا تماما . يولدون ويموتون وفي الرحلة من المهد إلى اللحد يحلمون أحلاما بعضها يصدق وبعضها يخيب . يخافون من المجهول ، وينشدون الحب ، ويبحثون عن الطمأنينة في الزوج والولد . فيهم أقوياء ، وبينهم مستضعفون ، بعضهم أعطته الحياة أكثر مما يستحق ، وبعضهم حرمته الحياة . لكن الفروق تضيق وأغلب الضعفاء لم يعودوا ضعفاء** " [٢] .

خلاصة هذه الفقرة أنه يريد أن يوصل فكرة أن الإنسان الغربي هو مجرد بشر كأي بشر في العالم ، فهو يولد ويموت وبين ذلك يعمل ويشتغل بنفس

---

(١) الطيب صالح ، الأعمال الكاملة ، ص ١٣ .

(٢) السابق ، ص ١٣ .

الوظائف التي لدينا ، ففيهم المزارع في الحقل والعامل في المصنع والطبيب في المشفى والمعلم في المدرسة ، يحلم أحلاما فيحقق بعضها ويتعثر في تحقيق بعضها الآخر ، يبحثون عن الحب ويخافون من المجهول ، يبحثون عن السكينة والهدوء في الزواج والمتعة والسعادة مع الأولاد ، فيهم من أعطته الحياة ومنهم من تعرض لابتلائها .

لكنه يشير في النص إلى أمر مهم في قوله (لكن الفروق تضيق وأغلب الضعفاء لم يعودوا ضعفاء) يدل في هذا النص ضمنا على الجهود المبذولة في هذه الدول لتضييق الفجوة بين الفقير والغنى بتحقيق العدل والمساواة بين أبناء الشعب الواحد ، مع توفير متطلبات الحياة الكريمة لطبقات المجتمع ، مما أدى إلى تضييق الفروق بين الأقوياء والضعفاء .

وفي النص نفسه إشارة إلى أن الحياة هناك لا تسمح للضعيف بالبقاء فيجب أن يستأسد ويأخذ حقه في مجتمع البقاء فيه للأقوى .

أما توفيق الحكيم فيصور عدم الترابط بين أفراد الأسرة ، فيصف الصلة بين الأزواج هناك وأن المرأة الغربية لا تضحي من أجل زوجها :

" **استيقظت الفتاة فوجدت حبيبها إلى جانبها ميتا ، فبكته بكاء مرا ، وجاء الناس والكهنة وأحرقوه .. فأسرعت الفتاة وألقت بنفسها إلى جانبه في اللهب .. تلك قصة الفتاة الهندية ، أما الفتاة الأوروبية اليوم ، فإنها تفعل غير ذلك! إنها أعقل من أن تلقي بنفسها في اللهب من أجل الذي تحب ، أما من لا تحب فهي تعرف كيف تجعله هو اللهب وهو الحطب الذي يلقى في المدفأة ، كي ينشر الحرارة في مسكنها المغطى بالجليد** " [١] .

---

(١) توفيق الحكيم ، عصفور من الشرق ، ص ١٠٩ .

هذه المقارنة بين الفتاة الهندية والفتاة الغربية التي تظهر إلى أبعد حد صفات الأنانية وعدم التضحية من أجل الزوج من جانب الفتاة الغربية . فضلا عن جبروتها في وجه أي رجل آخر فتستخدمه من أجل مصلحتها .

الحياة هناك لا تسمح للضعيف والفقير بالبقاء ، حتى حق التعليم أصبح مشكوك في أمره ، فالتعليم باهظ التكلفة مرهق ماديا لا يقوي عليه الشعب ، يبين هذا توفيق الحكيم في روايته :

" **ينبغي أن تذكر أن ولديك (أندريه ومارسيل) لن يستطيعا بعد اليوم إمدادنا بالمال ، فلقد اعتزم (أندريه) إلحاق (جانو) بمدرسة داخلية وفي هذا باب جديد للنفقات سيتكلفه المسكين ، كذلك (مارسيل) يتكلف الباهظ من المال منذ عام في الإنفاق على تعليم (جيزيل)** "[١] .

وفي رواية (فيينا ٦٠) نص وحيد يصف فيه صحة أبناء الغربيين فيقول :

" **وفي السرير طفل صغير لا تعرف إن كان بنتا أم ولدا ، وحين رأته يطيل النظر إلى السرير الصغير قالت : هذه فيولا الصغيرة ، ستة أشهر .**

-حقيقة ؟

خرجت الكلمة من فمه والدهشة تسبقها وتتبعها ، فالطفلة كانت كبيرة ، حجمها يوازي حجم ابنته ذات العام ونصف العام ، عجيب أمر هؤلاء الناس ! أبنائهم دائما أصحاء أقوياء ملظلظون" [٢] .

في النص السابق ما يدل على الشبه الكبير بين البنت والولد عندهم ، فهم يتمتعون ببشرة بيضاء وشعر كثيف ناعم وقسمات وجه جميلة مما يجعل من

---

(١) توفيق الحكيم ، عصفور من الشرق ، ص ٢٦ .

(٢) يوسف إدريس ، نيويورك ٨٠ وفيينا ٦٠ ، ص ١٠٨ و ١٠٩ .

الصعب التفريق بينهما ، ثم يتحدث عن صفة أخرى من صفات أولادهم وهي الصحة البدنية والقوة .

ويلاحظ استخدامه لفظ (ملظلظون) للدلالة على السمنة التي فيهم ، وهذا اللفظ بهذا المعنى غير موجود في معاجم اللغة ، فالموجود في لسان العرب في مادة (لظظ) " ولظلظت الحية رأسها : حركته ، وتلظلظت هي : تحركت .. واللظلظة : التحريك " [١] ، فلعل الرابط بين المعنى العامي الذي تستخدم فيه الكلمة وهو السمنة التي تؤدي إلى اكتناز اللحم في الوجه والجسم وبين المعنى المعجمي وهو الحركة ، كأنهم يعنون بهذه الكلمة أن جسمه يتحرك كثيرا بأقل حركة .

- **الخاتمة والنتائج :**

- جاءت الروايات – محل الدراسة – لتعرض بين ثناياها صورة المجتمع الغربي ، تركيزا على تصحيح المفاهيم المغلوطة عن الأسرة والمجتمع هناك ، مع التأكيد على بعض الأمور السلبية للمجتمعات الغربية .
- قام الرواة بتصوير العادات والتقاليد الاجتماعية للشعوب الغربية مع وصف مجموعة من القيم والمعايير المنتشرة هناك .
- رصدت الرواية العربية الوجه الاجتماعي القبيح للغرب خاصة ما يتصل بأمورهم الدينية والروحية .
- وصف طه حسين الحياة في فرنسا في روايته (أديب) بالهدوء والاستقرار والأمان ، كما أن طلب العلم هناك في كل مكان في المعاهد والملاهي والمقاهي ، فقد تحولت أماكن الترفيه واللهو إلى مراتع لدراسة الآداب ومدارسة الفلسفة وتلقي العلوم .

---

(١) أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري ، لسان العرب ، ج١٢ ، ص ٢٨٦ .

- أصبح الغربي فرحا ومسرورا بحريته وتحرره الديني عندما رأى كبار المفكرين على تضاد وتحارب مع الكنيسة .
- أشار توفيق الحكيم في روايته (عصفور من الشرق) إلى المنحي الديني للغربيين خاصة استهتارهم بدور عبادتهم وعدم تقديسهم لها .
- تأثرت الأسرة كثيرا بالحضارة الغربية المادية ، فتحولت من مكان للاستقرار والسكن إلى مكان خاو من الأفراد ، فالأسرة مفككة وأعضائها فقدوا الألفة والود بينهم .
- الصورة النمطية عن زواج الغربيين عند العرب لا تخرج عن كونهم أشخاص لا يتزوجون ولا يهتمون بتربية الأولاد ، وكل فرد في الأسرة له حياته الخاصة بعيدا عن أفرادها .
- جاءت الروايات – محل الدراسة – لتحاول التخفيف من وطأة هذه الصورة النمطية المنبثقة عن حقيقة هذه المجتمعات ، خاصة الطيب صالح في روايته (موسم الهجرة إلى الشمال) وطه حسين في روايته (أديب) .
- أشارت رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) إلى أن الغربيين يتزوجون ويهتمون بتربية أولادهم بحسب عاداتهم وتقاليدهم .
- الحياة في الغرب صعبة على الضعيف والفقير ، فالتعليم أصبح باهظ التكلفة مرهقا ماديا لا يقوي عليه الشعب .
- يشير يوسف إدريس في رواية (فيينا ٦٠) إلى الصحة البدنية الجيدة التي عليها حال أبناء الغربيين ، مع وصفهم بالجمال والوسامة .

● **المصادر والمراجع :**

١-أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري ، لسان العرب ، ج١٢ .
٢-أحمد أمين ، الشرق والغرب ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٥م .
٣-توفيق الحكيم ، عصفور من الشرق ، دار الشروق ، القاهرة ، ط٧ ، ٢٠١٤م .
٤-جمال مباركي ، الغرب في الرواية العربية ، بحث دكتوراة ، الجزائر ، جامعة العقيد الحاج لخضر باتنة ، كلية اللغة العربية .
٥-حسين فوزي ، سندباد مصري جولات في رحاب التاريخ ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ .
٦-رمسيس عوض ، الإلحاد في الغرب ، سينا للنشر ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٧م .
٧-سالم المعوش ، صورة الغرب في الرواية العربية ، مؤسسة الرحاب الحديثة ، بيروت ، لبنان .
٨-طه حسين ، أديب ، دار الحياة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٥م .
٩-الطيب صالح ، الأعمال الكاملة ، دار العودة ، بيروت ، ٢٠١٠م .
١٠-عبدالله أو غرب ، الذات والآخر الغربي في روايتي الغربة واليتيم لعبدالله العروي ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب واللغات ، جامعة أبو بكر بلقايد ، تلمسان ، الجزائر ، ٢٠١١م و ٢٠١٢م.
١١-عيسى قويدر العبادي ، المشعوف في الرواية الأردنية المعاصرة ، الجامعة الأردنية ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، مجلة دراسات ، المجلد ٣٨ ، العدد ١ ، ٢٠١١م .

١٢-غسان السيد ، صورة الغرب في الأدب العربي – رواية (فياض) لخيري الذهبي نموذجا – ، مجلة جامعة دمشق ، المجلد ٢٤ ، عدد ٤٠٣ ، ٢٠٠٨م .
١٣-غسان السيد ، صورة الغرب في الأدب العربي – رواية (فياض) لخيري الذهبي نموذجا – ، مجلة جامعة دمشق ، المجلد ٢٤ ، عدد ٤٠٣ ، ٢٠٠٨م

١٤-فيصل دراج ، الرواية وتأويل التاريخ ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط١ ، ٢٠٠٤م
١٥-محمد محمدي ، حضور الآخر في كتابات طه حسين ، مجلة المخبر ، جامعة بسكرة ، الجزائر ، العدد ٩ ، ٢٠١٣م .
١٦-محمد نور الدين أفاية ، الغرب في المتخيل العربي ، منشورات دائرة الثقافة والإعلام ، الشارقة ، ط١ ، ١٩٩٦م .

١٧-ندى بنت عطية بن راشد الزهراني ، مفهوم تحرير المرأة في الفكر الغربي – دراسة نقدية – بحث ماجستير ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٣٤/١٤٣٥هـ .
١٨-يحيى أبو زكريا ، الإسلام والغرب ، مؤسسة يحيى أبو زكريا للدراسات الإستراتيجية والاستشرافية ، ٢٠٠٤م .
١٩-يحيى حقي ، قنديل أم هاشم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة .
٢٠-يوسف إدريس ، نيويورك ٨٠ وفيينا ٦٠ ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، ٢٠٠٩م .